أبو الخير عماري

الفاقدون

بِرواية ضمير الحزن والخوف

قصص
قصيرة
جدا



الكاتب: أبو الخير عماري

العنوان: الفاقدون

السنة: 2007

تصميم الغلاف/الإخراج: Simple Production

الإيداع القانوني: 2007-2807

ردمك: 978-9947-24-220-9

أبو الخير عماري

الفاقـــدون

برواية ضمير الحزن والخوف

قصص قصيرة جـــدا



إهداء

إلى كل إنسان، هنا أو هناك،

يجد نفسه، اليوم أو غدا

واحدا من أولئك الفاقدين !!

مقدمة

الفاقدون .. وفضاء الفقد!

إذا كان الوجود الخارجي وجودا يخالفه العدم فإن الوجود الداخلي المسمى الوجدان، لا يمكن أن يضاده العدم؛ لأن المعدوم بالنسبة للذات هو ما انزاح عن الشعور فخالف الوجدان..

وما تجده الذات بالشعور قد تفقده لحظة ما لهذا يسمى هذا الوضع الشعوري الفقدان خلاف الوجدان.. وهو ما ندعوه أيضا بالفقد وندعو صاحبه بالفاقد الذي يتعدد عبر المكان والزمان فيصير جماعة من الفاقدين.

والفقد عندي ليس قيمة ولا موضوعة بل فضاءً يمكن له التهام أي نص سردي، والسر أن الإنسان في هذا العالم يعيش ثنائية لا يمكن الانفصال عنها حتى الموت لارتباطها بالزمن

الجزأ إلى لحظة ماضية وأخرى آتية، وما ندعوه مجازا بالحاضر ليــس إلا تجسيدا لتلك الثنائية المشكلة من الحزن والخوف؛ فكل إنسـان يـحزن هـو حـزين لشيء قد فقده في اللحظة الماضية، وكل إنسان يخاف هو خائف من على شيء سيفقده في اللحظة الآتية!

وما ندعوه في النقد بالثيمات أو الموضوعات هو سابح في هذا الفضاء سباحة الكواكب، حول مركز اسمه الإنسان؛ فما الموت أو الغربة أو الظلم إلا موضوعات تسبح في فضاء الفقد.. فالغريب -مثلا- حزين بالتأكيد لأنه واحد من الفاقدين وقس على ذلك كل الفاقدين.

ولعل فضاء الفقد لا يمس السرد وحده بل يتعداه إلى الشعر أيضا باعتبار الشعر، جزءًا منه، من السرد إلا أن ميزة الشعر أنه يعبر عن الموجود والمفقود معًا، إذن فللشعر فضاءان: فضاء للوجدان وآخر للفقدان.. وهذا لا يعني أن السرد لا يمكن له التعبير في فضاء الوجدان بل يعني أن السرد -باعتباره خاضعا للزمن- مدفوع دفعا إلى فضاء الفقد ولأن الشعر-باعتباره مفصولا عن الزمن- مندفع باللحظة المشعورة التي قد تكون قفزت من أحد الفضاءين، لهذا لا أوافق رأي من يقول أن الرواية ستهدد واقع الشعر!.

* * *

بهذه العجالة النقدية أستطيع أن أقدّم إلى القارئ مجموعتي القصصية (الفاقدون) بباقاتها الأربع: 1) نساء خلف الظل، 2) باب الطير والسلاحف، 3) حلم فراشة ليلية، 4) ما في الجبة.. وبأساليبها المتعددة وتقنياتها المتنوعة وموضوعاتها المتجددة وإلهاماتها الكثيرة.. بعيدا عن الخوطرة، والشعرية، والتهويم، والذاتية،، ما أمكنني القلم والموهبة، مذهبي في ذلك أن السرد يرصد ما يجري خارج الذات بلغة موضوعية بعيدة عن لغة الشعر، قريبة من روح الحكي.. سابحة في فضاء الفقد!.

هذا الفضاء الذي تسبح فيه معظم الأقاصيص في المجموعة وكان بالإمكان احتواء عشرات القصص منه بدل الاثنتين والعشرين قصة، حيث هذا الكم قد خضع لمسألة الاهتمام الإبداعي والانتقاء الثيماتي.. لهذين الأمرين كان الاكتفاء بهذا القدر من فضاء يسع آلاف القصص.

– حاســي بحبــح رجــب 1424 هـ/ سبتمبـر 2003م.

تصـــــــدير

قلنـــا اهبطـوا منها جميعا فإما يأتينّكم منـي هدى

فمـــن تبع هـــداي فـــلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

قرآن كريم

الباقة الأولى

نساء خلف الظل

- الحوراء والجنازة
- الهدف
- عسلُ القلب
- الشاطئ
- نساء خلف الظل
- الكابت
- المفقود

الحوراء والجنازة

تصدير : " قالت إحداهما: يا أبت استأجره،إن خير من استأجرت القوي الأمين.
قال: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ".(1)

باب بيتها الأزرق ينفتح، تخرج هي في طرحتها البيضاء؛ والذي يحبها جالس في مقهى حيه يجهل ما يحدث. خط من السيارات يبتلع كثيرا من أهليها في هالة من الزغاريد تتوسطهن فارعة؛ تخفي خلف طرحتها وجها كالبدر فيه عينان نضاختان فتنة، حوراوان مثل المهاة؛ غير أن نظراتهما تنكسر من الحزن!

يطلب "محمود" قهوته اليوم سوداء لترتسم طويلا على الفنجان الخزفي الأبيض، ثم يقتهي رشفات منها ويسأل رجلا عن التاريخ.

* * *

1) سورة القصص، الآية: 27.

فتح جارها الباب للذي كان لاهجا.. إن الطريق بين المقهى والباب مسيرة ربع ساعة قصها منطلقا كالجواد الجامح!

– ماذا قال لك أهلها؟

– من تقصد؟

– خديجة الزعفرانية.

– إنك لن تراها من اليوم!

يصمتان.

تمر جنازة فيها نفر من الحي الأخضر[2] عليهم خرق بالية ويسمع أذان الظهر من مسجد حيه القريب من "الجبانة".. كان النعش يحمل جثمان خصيمه في قلبها وحبها؛ قد مات عاجلا في حادث سيارة.. عرف ذلك من الجار!.. لكن تماسك قليلا ثم سأله -مؤكدا– عن حبيبته..

قال له جارها:

رحمه الله! كان ينافسك بالوسامة، وكنت تنافسه بالشهادة؛ وها قد زُفت اليوم إلى زوجها المقاول فلان!

فانطلق ساخطا كالمجنون نحو الجنازة يردد معهم قولهم: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".. ويختفي أبدا عن بابها الكاسف!

---

2) حي من أحياء حاسي بحبح.

الهـــدف

في الملعب رمى أحد زملائه الكرة بعيدا بقذفة صاروخية جعلتها تخترق السور المهترئ الذي تفوح من خلاله روائح الأشياء والناس!،، لم تكن القمامة بعيدة عن سور الملعب..

في القمامة بلغت الكرة هدفها، حين كان يفكر فيها وهو ينظر إلى أسطح المدينة القرميدية، ها تحت واحد من تلك السطوح كانت تعيش "فضيلة" التي قطعت صلتها به منذ أربع سنوات وقررت –بعد وشاية من صديقاتها– الزواج بواحد من أقربائها!

حاول الإمساك بالكرة بكلتا يديه فالتمح أوراقا محترقة وواحدة لم يكتمل احتراقها شدته بخط أنثوي جميل أوشك أن يعرفه!

التقط الورقة وطفق يقرأ هذه الكلمات: " أحببتك سيدي، قبل الزواج، وبعد الزواج، وبعد الطلاق !"

نظر إلى التوقيع والتاريخ، ثم رمى الكرة نحو الميدان وانطلق حثيثا ليس إلى الملعب بل إلى الشارع الذي علمه موطنا للحب!!.

عسل القلب

رمى قلبه بين الزهور..

وقامت نحلة استهواها قلب الرجل فاتجهت إليه.

كان القلب كالقفيرة المختومة لم تدخلها نحلة قط، أما النحلة فقد مُلئت فؤادا من سائر عذارى النحل!!

..بينما قلبه أخذ يزخّ سائلا ذهبيا؛ تذوقه فكان عسلا مثل عيني حسناء!

تموت النحلة فجأة، ويصحو الرجل في جوف الليل وهو يتلمس الوسادة الأخرى.. ثم يجهش في بكاء !!.

الشاطئ

تقديم: هذه القصة مستوحاة من لوحة "العربة الشبح" للرسام الإسباني "سلفادور دالي".

كان الوقت أصيلا حين ارتدت المرأة ثيابها لتغطي ما عراه سحر البحر في الصيف اللافح، كان لون جلدها البرونزي يتناغم ولون الرمل مع وهج الشمس المتأهبة للغروب.

بينما زوجها، كان يربط الحصان بالعربة التي كان يخالها الناظر من بعيد قوسا من أقواس المدينة!.. أما الصياد الذي شوى لهما السمك فقد اعتذر عن الذهاب معهما حتى يسقط الظلام وتضيء المدينة التي تبعد عن الشاطئ بميل أو يزيد.

كان قرصُ الشمس قد استوى على البحر من جهة الأفق الغربي؛ إذ لم يعد الصياد يميز بين لون البحر ولون الشاطئ الذهبي الذي زاده الهدوء لمعانا وزادته العزلة نعومة!.

نظر إلى الأفق الشرقي حيث تسكن المدينة وتنام الحبيبة التي أغرقها البحر ذات صيف بعيد.. كانت تعده بالكثير لكن الموت أرغمها على الإخلاف!

أخذ يتأمل ابتعاد العربة ويرنو إلى الراكبيْن فلم يميز سوى شعرها الكستنائي الممتد يمينا وشمالا فأثار فيه إيقاع أجراس الكنيسة وصور التابوت وضريح الفقيدة.. ثم بدأت المدينة تلمع.

من بعيد فطفق في حركة سريعة يرتدي بقية ملابسه وانطلق مقتفيا آثار العربة، مصوبا نظره إلى مكان المرأة منها. فكان كلما اقترب من اللحاق ازدادت العتمة استواء على قبة المدينة..

وفي اللحظة التي وصل فيها الصياد معتقدا أنه بلغ العربة لم يجد إلا نفسه تحت قوس المدينة الذي يشكل مدخلها، أما الرجل الذي كان يراه لم يكن إلا كوخه المتواضع من القش، أما المرأة فلم تكن إلا طاحونة هولندية! أما شعرها فقد بدا له الآن مروحة تلك الطاحونة!!

تحسّس نفسه أخيرا فوجد إحدى يديه تحمل سمكا لأم حبيبته الفقيرة مثلما اعتاد ذلك كل مساء منذ سنوات عديدة...!

نساء خلف الظل

تقديم: هذه القصة مستوحاة من لوحة "غموض في شارع"، للرسام الإيطالي "جورجيو دي كيركو".

كانت الطفلة تاسعة أخواتها وأخيرة بنات أبيها.. خرجت يوما من منزلها وفي يدها دحروجة لتلعب بها في الشارع كعادتها.. كان الوقت ضحى حين فوجئت الطفلة بخلوه من المارة من الأطفال والشباب والرجال، حتى الشيوخ!

راحت تدحرج كعادتنا ونحن صغار، لم تكن تزمع على شئ سوى اللعب وقلبها هواء، وطفقت أيضا بسذاجتها تعلل فراغ الشارع بأنهم نيام ولم يستيقظوا بعد مثلها!

مع انكسار الشارع رأت على يمينه حافلة صغيرة في زاوية من الظل تمشي ببطء يشبه سير دحروجتها، حاولت أن ترنو إلى الراكبِين فعرفت بقلبها أن النساء يمثلن جميع الركاب بل هن الراكبات وحدهن ولم تتحرّ السائق.. أسرَّت في نفسها: "إن هذه تسير لوحدها، إنها خير من دراجتي التعيسة!" ثم توازت في انطلاقها مع الحافلة..

لاح لها من غير بعيد ظل كأنه شبح يمتد مع الشارع، لم ترَ صاحبه لاختفائه في زاوية من الشارع.. التفتت نحو الأمام من الجهة اليسرى حيث المبنى ذو الأروقة والأقواس بتناهى مدَّ البصر يحدّ نهايته بيرق أحمر منصوب فوقه فتذكرت أن الراية الحمراء خطر!.. هكذا تعلمت في المدرسة في السنة الثانية!

توقفت ذعرا كأن ذلك الظل قد بدا لها، وتهيأ لها أنها نامت وحلمت بأنها راكبة مع النساء في الحافلة، لكن في مثل عمرهن صارت.. وأخذت الحافلة تتوجه إلى الجانب الآخر حيث يوجد الشبح طويل الظل،، بعد لحظات أدركت النساء أن هذا الظل لم يكن إلا لرجل وحيد في المدينة!!

نزلن كلهن، وعلى عكس المنتظر، فقد فر الشبح مع واحدة فقط منهن، أما الأخريات فقد عزمن على اللحاق به ولم تدركه منهن إلا ثلاث أما البقية فسقطن عاجزات..

وأما الطفلة فتلمست نفسها فألْفت نفسها عجوزا في الغابرين فلجأت إلى صراخ طويل حتى استيقظت "مريم" من نومها وتعوذت بالله من هذا الكابوس، وقامت إلى صلاتها بعد أن تذكرت في ابتسام آمل أنها لا تزال عذراء في العشرين!!.

الكابــت

بمحاذاة القرية كانا يسكنان: الشاب الذي تجاوز الثلاثين ولم تسعفه ظروف للزواج، والفتاة الغانج النازحة مع أهليها من المدينة المطلة على البحر..

لم يكن البركان بعيدا عن القرية بأكثر من ميل أو يزيد،، هو الآخر لم يدرك ثورانه منذ عقود حتى الآن، لذا اطمأن الأهالي له.. وكان أهله أقرب بيتا إليه من سائر القرية.

يذكر أنه مرة واحدة أيام البلوغ رأى فتاة تستحم قرب النهر عارية!.. كانت شقراء لا تشبه بنات القرية قدِ قدمت مع أهليها المغتربين من وراء البحر.

هاهو بعد سنوات تقطن بجواره فتاة أخرى تشبهها لكن ليست هي، بيد أنها غانج وغرّارة!

في ليلة صيف أزعجه حلم أيقظه من النوم فخرج يتمشى، رأى البدر والتمح البركان بعيدا، وأحس بالهدوء والسكينة والحرارة، وبالجسد يقترب منه!

كانت ترتدي قميصا شفافا يبدو منه كل شئ!.. أحس بالجفاف والخفقان والارتعاش ونظر إلى النهر، بينما هي نزعت قميصها فانقضَّ الجسدان وتجشّأ البركان!..

في الصباح سلِم أهل القرية كلهم وبقي الجسدان لصيقين يجرفهما النهر نحو البركان!!.

المفقود

قاما من لحديهما، وأول ما فعلاه بحثا عنه فلم يجداه..

قال الرجل:

- خذي يا امرأة مصباحا وعودي إلى القبر!!.

البــاقــة الثــانية

باب الطير والسلاحف

- تشرين والقمــــــــر
- باب الطير والسلاحف
- حمار "نسيـــــــن"
- ذيل الدينصـــــــور
- المجنون وعلبة الثقاب!
- قنبلـــــــــة..

تشرين والقمر

(أ)... سيدي البطل، أمسك بقلمي لآخر مرة، آسفا على فراق الحرف، تدرك أني كتبت عنك الكثير لكن لم أقل شيئا عنك، ما كتبته لم يكن سوى رصف للكلمات، لهذا أزمعت على التخلي عنك حتى إشعار آخر.

إمضاء الكاتب

مزق كثيرا من محاولاته الأخيرة وقرر التخلي عن الكتابة،، الجميع ينظرون إليه نظرة شزراء، لعل عرافا ذا خُزعبلات أفضل لديهم من أوراقه التي تقول قصصا لا يقرؤها إلا الفاقدون!!

خرج يوما من داره لا يقصد في وجهته إلا أن يمشي فقط في مساء من شهر تشرين الأول حيث آخر شمس منه غابت تماما وطفق الغسق يعتم زوايا المدينة مثل امرأة طاعنة قررت ارتداء الحجاب!..

لم يعرف الخروج ليلا منذ شهور، كان يدرك تماما تاريخ هذه الليلة، إنه منتصف الشهر القمري، نظر إلى السماء فكانت أصفى من سماء صيف، لكنه بُهت حين افتقد إلى وجه القمر في صفحة السماء، قال مشدوها:

– أين البدر أيتها السماء؟!

لم يسمع جوابا بل سمع أبواق السيارات تغادر وصيحات الناس تتوادع لتلتقي مرة أخرى.

(ب)... في البيت تلقى رسالة من البطل جاء فيها:

أيها الكاتب الكبير، قد تلقيت قرارك الخطير، ففهمت أن قلمك هذه الأيام مصاب بالخسوف،، اكتب عني فقط كأنك القارئ الوحيد في الأرض لا يهمك اختفاء البدر مادامت ملايين النجوم تضيئ!!

إمضاء البطل.

أمسك القلم بارتعاش غريب وقرر أن يكتب عن انكفاح الدم في بواليع المدينة.. تراجع خائفا فقرر أن يكتب عن موت العواطف بين كتل الأجساد.. تراجع مرة ثانية عن هذا.. ثم فكر أن يكتب عن موت البطل!!

بدأ كتابة السطور الأولى فإذا بالبدر يطل من زجاج النافذة، رنا إليه بعمق فتذكر أن هذا البدر كان من سنوات بعيدة ذات تشرين.. تذكر صوت رصاصة لا يزال ماكثا في صماخ جدّه!..

رمى القلم وأخذ في صراخ طويل حتى طلع فجر الفاتح من تشرين!!.

باب الطير والسلاحف

(ما لم يقله بيدبا الحكيم للملك دبشليم)

(أ)... قال الحكيم للملك:

ذكروا –وليس زعموا– أن رجلا شهما قد رأى ليلة حلما غريبا، رأى القرية كلها أمست غابة، عرصاتها تحولت إلى جذوع، وأسقُفها استحالت أغصانا وأوراقا ممتلئة فاكهة وثمارا..

تهيأ له أن نسي أن المكان كان مدينة بل غابة لم يكن غيرها، وترجح لديه أن يكون قاطنوها من سائر الحيوان فلم يسأل عن الإنسان!

طفق يرنو مشدوهاً كأن الغابة مهجورة فلا حيوان ولا إنسان !.. أغمض عينيه ثم فتحهما فألفى من الحيوان اثنين لم يرَ غيرهما: رأى أطيارا على رؤوس الشجر كانت ترغد في حياتها،، ثم بدأت سلاحف تصعد متسلقة نحو الطير كأنها تزمع على شيء وحين بلغت أعالي الشجر دُهش لأمر الطير وهي تهوي إلى الأرض مقصوبة الأجنحة!.. لم يكن أملها سوى المشي على رجلين ثم أخذت تلك السلاحف تأكل من كل الثمرات!!

(ب)... قال الملك للحكيم:

– أتدري من ذلك الرجل الحاكم؟

– إنه رجل في حكاية لا أعرفه!

فقال الملك ضاحكا:

– إنه أنا المتحدث والمستمع!!

لقد كنت ملكا من الملوك أحكم المدينة والناس بالعدل والإحسان، وكان قصري يعج بالطيور؛ فحدث ليلة أن سرمد الظلام واستدام، فزحفت سلاحف الغابة بينما الطير أبقت بحثا عن نور تستضيئ به لنفسها فلم تجد شعاعا واحدا فضلت في الظلام إلى يوم الناس هذا.. ولما طلع الفجر وجدت الغلمان ولقطاء الغابة يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف!

أمـا أنـا الملـك فقـد لبثـت في داري هذه حتى بلغـت من الكـبر عـتيا...

فقال بيدبا الحكيم للملك دبشليم:

– عذرا، أيها الملك، قد نسيت مثَل الرجل الذي يعيش النكسة في كل شئ يقابله السِفلة من الناس يحكمون رقاب العباد ويأكلون خيرات البلاد!!.

حمار "نسين"

تصدير:

" يُحكى أننا نحن الحمير كنا في قديم الزمان نتحدث بلغة كالتي تتحدثون بها أنتم البشر. كانت لنا لغة خاصة!"[3]

استيقظ الرجل من نهيقه مهرولا نحو المرآة:

– الحمد لله! "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"!

في المقهى التقى صديقه "فلاناً" وسرد له هذا الكابوس:

رأيت، يا صديقي، في الحلم رجلا وديعا كنت أشاهده في التلفزيون يتكلم كل اللغات، إنك تعرفه جيدا، إنه ذلك الذي يجعل الجنة في عين الصوص!

وكأني في موج من تلك الجنات طفقت آكل العشب ووجهي إلى الأرض!

تساءلت: لِمَ آكل من جنته بهذا الأسلوب وأنا معتاد على التهام الخبز قاعدا أو جاثيا؟!.. ثم بدا لي أن شيئا يتحرك ورائي، عضوا جديدا لم أكن أملكه، تقدمت خطوات إلى الأمام ففهمت معنى: "ومنهم من يمشي على أربع"؟

---

3) من قصة ساخرة للكاتب التركي: عزيز نسين.

كـان الـعشب لـذيـذا فـأكـلت الـكـثير مـنـه حتـى شعـرت بالعطش وبدا لي الماء بركة تسطع من بعيد قرب الرجل الوديع كالحمَل.. هُرعت إليه وشربت قدرا جعلني أسترخي على شط البركة وشعرت بالنعاس فغفوت للحظات..

حين انتبهت اختفى الرجل تماما واستخلفه ذئب كان في وداعة ذلك الرجل؟،، تقدم نحوي فلم آبه به، قلت: إنه وديع لا يـؤذيـنـي. بـدأ يـتـشـمـمـني فـأحسست بـالـلـطـافة والـرقة والانتعـاش!!

عضني عضتين أو ثلاثا فأقنعت نفسي أنه يدغدغني لا غير.. وبدأت أضحك أضحك.. حتى كاد يتفسخ جلدي من الضحك، بل تفسخ فعلا وهو يمزقني وتناهى الضحك فتذكرت أن الحمير مع الغضب تصك ومع الخوف تنهق!

لم أغضـب، خشيـت على الذئـب الـوديع أن أجرحه فلجأت إلى الخوف!!..

* * *

ضحك الصديقُ من هذه النرهة كثيرا حتى أضحك الجمع الغـفـير في المـقـهى، وامتـد الضحـك إلى الشـارع ثـم الحـي فـالمدينـة كـلـهـا.. حتـى أخـذ رجـل في تلفزيون المـقـهـى يـضـحـك هـو الآخـر بـعـد أن أعـلـن عـن نـتـائج التصويت!!.

ذيل الديناصور

إضاءة: " عندما استيقظ في الصباح، كان الديناصور لا يزال قابعا هنا!"[4]

– لابد أن أرسم شيئا يستحق الخلود،،

شيئا لا يسفك لوحتي بالدماء!

كان يقول هذا وبين شفتيه لفيفة يتصاعد دخانها رماديا يحاكي غيوم اليوم المنسوخ كل يوم!.. يسير مخترقا الأرصفة والشوارع المشتبكة بالناس،، الكل يرسم شيئا في حياته إلا هذا الأشعث الذي يتأبط حقيبة الرسم، ويضع على ظهره مرسامه المطوي.. يتحدث مع نفسه كالمجنون عفوا كالمسئول حين يحمل هاتفه المنقول!

توقف قلِقا مضطربا إلى الوراء، كان رجلا ذا رتبة عاليـه، لم يكن يتبع ظله كما توهم لأنه فجأة توجه إلى سيارة خاصة متجهة نحو الميناء.

– لابد أن أرسم شيئا يستحق الخلود،،

شيئا لا يسفك لوحتي بالدماء!

---

4) قصة قصيرة جدا للكاتب الأمريكو–لاتيني: أوغيستو مونتيروسو.

كرر أمنيته المجنونة وواصل طريقه.. كانت الغابة تقترب منه كأنها أمــواج خضــراء ستغـرق مدينة لا يعـرف أهلها السـبـاحة،، فيـها صنـوبـرات كالجـنود لـونا وعـددا، يقف عند واحدة ويتذكـر الرجل والميناء والمحمول، وأمواجا بشرية معظمها نساء: عجائز وفتيات وطفلات تتشققن كالورود.. تساءل:

– ماذا سيكون مصير الرجال في محيط من النساء غدا؟!

معتقدا سؤاله فكرة للتشكيل!

فتح حقيبة الرسم وإذا بانفجار مهول من بعيد يرطم أذنيه فكاد يُصعق!

كان الوقت صباحا، ومن عادته أن يسمع أكثر من انفجار واحد في اليوم..

نصب مرسامه خلف الشجرة، وقال يخاطب الفرجون:

– أيتها الفرشاة للمرة الألف تنزفين!

إذن، علـي أن أرسـم صـورة لـلـديـنـاصـور، يجب أن أفي بوعدي لابني "وليد" كما رسمت له بالأمس لوحة النعاج!!

بدأ برسم الأسنان حمراء طويلة كأنها أنابيب بترول! ولما بلـغ الـذيـل انفـجـرت من بعيد قنبلة، واثنتان، وثلاث ثـم انطلقـت صــفارات من الميــناء تـدوي،، ذكـرت الصحـف – في الغد– أن إحدى السفن كانت محملة بالسكر للشعب!!

المجنون وعلبة الثقاب!

في الحلم لم يفهم الرجل ما قاله التمثال، كأنه هازئ به! سمعته زوجته "جُرجيت" يتحدث نائما:

– لن تفعل شيئا أيها الصخرة الصماء مادمتَ قائما في أرضي ترنو إليك كل الشعوب!

وأيقظته لأن الضحى قد غمر المدينة،، واعتقد "دافيد" رجل الأعمال الشهير أن صفقة اليوم ستكون كالجنة التي رآها في المنام.

لكن لم يتمَّ ارتداء الثياب حتى تفاجأ بالخبر العاجل على شاشة التلفزيون:

– انهيار المبنى الفلاني بالمدينة!

وشاهد بأم عينيه نار الحلم تحرق الصقر!!

قال في جنون، والقناة تشير إلى موت الآلاف:

– لا! مستحيل.. لا يحدث هذا في المدينة.. إن القناة تمزح!!..

بعد أيام أعلنت كل القنوات أن هذا الرجل قد أُصيب فعلا بالجنون حيث توجه إلى الشرق، وفي إحدى يديه علبة ثقاب ليحرق كل المدن!!.

قنبلــة..

كان الجنـدي شـارد الـذهـن، أذنـاه تـتـمـردان على سـمـاع التوصيات.. ليس بين عينيه سواها، تذكرها وهو يلمس خاتمها الذي أهدته إياه في الخطبة.. كان الخاتم هدية من "بغداد"!..

هو يدرك أن شروده طارئ لأن الخبر جاءه كالصاعقة!..
قالوا له:

– إن خطيبتك واحدة من مراسلي الحرب والقائد بصدد القصف!

كان في يديه قنبلة حين نظر إلى أصدقائه واشتم منهم في عيونهم قصصا مثل قصته!.. ترك أمرهم حتى أمر القائد بالقصف.. لم تكن القنبلة تتشظى تماما حتى سقط هو وأصدقاؤه ميتين!!.

الباقة الثالثة

حلم فراشة ليلية

قلب الشاعر

(أ)...صحف الصباح تخاطفت خبر موته، حتى صفحات المجلات المرئية على شاشة الحاسوب تنعي ذلك الرجل العظيم الذي مات ليلة أمس بعد سكتة قلبية!

- كل الناس -هذا الصباح- يتلُون روائعه الشعرية، وبعضهم يبكون مآثره الخُلقية!

كان واحد من الحمقى قد اقترح في تأبينه أن يفعلوا مع الشاعر الكبير كما فعلوا مع العالم الكبير "ألبرت إينشتاين"!

تدخّل أحدهم ساخرا:

- وماذا نفعل بدماغ الشاعر؟!

- لم أقصد دماغه بل قصدت أن يفعلوا بقلبه!

وطارت الفكرة عبر العالم وتلقفتها "اليونيسكو" بل قررتها، فأخذوا قلب الشاعر فلم يجدوا سوى مضغة دموية من عضلات وأوردة وشرايين.. تعجبوا لكنهم أرجأوا الأمر حتى يتطور العلم أكثر ويكتشف هذه العبقرية الدفينة في قلب الشاعر!!

(ب)... لم تزَل زوجة الشاعر تتلقى التعازي من معجبيه ومعجباته، كل وسائل الاتصال تنعي هذا العظيم:

الهاتف والفاكس والإيميل.. وما تفعله الزوجة هو أن ترد بلباقة وفق البروتوكول الاجتماعي،، لكنها كانت تعد بشيء يوم ذكراه الأولى.

الشهور والفصول لم تتمالك نفسها هي الأخرى لهفة في معرفة هذا الشيء الذي تفصلنا عنه ليلة واحدة فقط!

في الغد أقيمت الحفلة، وجاء المعجبون من كل حدب احتفاءً بذكراه الأولى.. كانت دواوينه – التي تفوق المئة – معروضة أمام معجبيه!

افتتحت أرملة الشاعر بكلمة أثارت سخط الجمهور؛ فقام ذلك الأحمق منتفضا:

– أنت كاذبه! أنت خائنه!

وهمَّ نحوها وبيده سكين.. كاد يرتكب جريمة لو لم يستيقظ من نومه!

قام ورمى القلم من يده وتذكر أنه لم يتزوج قط فحمد الله كثيرا!!

* * *

كان كل ما حققه هذا الشاعر طيلة حياته بضع قصائد يتاجر بها في المرابد؛ وقلبه لم يحلم أبدا بأن يسع هذا العالم بالحب.

حلم فراشة ليلية

إضاءة : "قال حكيمٌ: إنه كان نائما وحَلم بأنه فراشة فلم يدرِ أن إنسانا يحلم بأنه فراشة أم أنه فراشة حلمت بأنها إنسان؟!" (5)

إذْ نام الرجل من شدة الإرهاق ترك الحاسوب مشغلا، وعلى ما يبدو من الشاشة فإنه كان متصلا بموقع خاص بعالم الفَراش.. الليل الصيفي يسرّب نسماته من خلال الستار المخرّم، يهتز قليلا لتتمكن فراشة ليلية من صنف البشّارات من إختراق الغرفة فلعل وهج شاشة الحاسوب قد جذبها.. تلتصق بالشاشة كأنها تحاكي فراشات الموقع المتصل به!

دخلت الأم فجأة، انتبهت إلى التوهج وإلى ابنها النائم على المكتب فأطفأت الجهاز ثم أيقظت ابنها لينام على السرير.. تم هذا في عجل لتعود أدراجها ولم تنسَ غلق النافذة قبل أن تذهب.

---

5) من التراث الصيني.

بعد لحظات يشتعل الجهاز مرة أخرى على موقع الفراشات، يبدو أن الفراشة الوالجة وجدت لها مكانا على الموقع حيث أرسلت إشارة إلى الرجل فاستيقظ.. كان يتهيأ له أنه يطير كجسم ضئيل ذي جناحين صغيرين بألوان بهيجة، فتوجه نحو الشاشة والتصق بها؛ أما الفراشة الأخرى فقد اتجهت نحو السرير متخذة صورة الرجل، اتْكأت، وأطفأت الجهاز عن بعد!

في هذه اللحظة تسمع الأم صراخ الابن، فتدخل الغرفة وتجده نائما في غطيط، والحاسوب كما تركته.. أما النافذة فقد انفتحت من هبة ريح.. أطلت من خلالها فوجدت "طوكيو" كأنها فراشة تضئ بكل لون!.. طفقت تتأملها فتمنت أن تكون فراشة تجوب ناطحاتها المتلألئة!.. لكن تفاجأت باقتراب الفجر وإسفار ضوئه.. التفتت إلى ابنها فلم تجده فتحولت إلى فراشة هي الأخرى ثم غادرت الغرفة من النافذة!

بعد ساعة أشرقت الشمس واستيقظ الرجل وكان الحاسوب لا يزال متصلا فأطفأه ونزع طاقية الافتراض وتوجه حثيثا نحو النافذة المشرّعة متعجبا من الضوضاء.. نظر إلى الأسفل فإذا بزوجته التي أحبتها أمه الراحلة جثة هامدة ملقاة على الرصيف!..

لقد نسي هذه المرة أن يحمي زوجته التي كانت تحاول مرارا فعل الانتحار!!.

انتحار إلكتروني لأجل صوفيا!

رجع مهندس الروبوت إلى سكناه..

مراسيم الدفن كانت محزنة وشاقّة على نفسه ليستسلم أخيرا لفراق أبدي بينه وبين زوجته وحبيبته "صوفيا".. إنه لم يمضِ سوى عام على زواجهما لتموت إثر صعقة كهربائية عنيفة.. يتذكر ليلة زفافه وكيف أهدى لها هديته الغريبة! كانت ممثّلة في روبوت برمجه لخدمة الزوجة والبيت فلم ينسَ أن يجعل فيه نظاما فريدا من الأفكار والمشاعر!

دخل غرفتها ووقف مشدوها لِما رأى!

كان الروبوت شظايا محترقة على سرير زوجته. لم تسلم من تلك الأجزاء إلا كاميرا وقرص مضغوط وبعض القطع الدقيقة.. لم يبقَ من "فيلو" هذا الرجل الآلي إلا شظاياه!!

لحظات متوترة فقط ويبدأ القارئ بعرض صور عن "صوفيا" في أوضاع مغرية وأخرى حميمة: كانت الشاشة تكشف عن أجمل ضحكاتها خاصة وهي تنزع حجُب أنوثتها؛ تعرض أوضاعا ومشاعر لم يستمرئها، عندها تذكر لماذا كان "فيلو" يغضب حين يقبّل "صوفيا" أمامه، او يعبس ساعة دخوله إلى البيت؟!

انتهى العرض الدرامي بأحرف إلكترونية حمراء: .. "Je t'aime Sophie!" (أحبك يا صوفيا) وأنساه ما رأى حزنه عليها.. ثم قرر أن يصمم كائنْآلة[6] آخر يكون أنثى بعد أن رمى شظايا "فيلو" على قبرها، وانساق وراء عواطفه الجديدة مع الآلة التي سماها"صوفيا" كما سمى نفسه "فيلو"!!.

6) تعريب الروبوت من اصطلاح المؤلف.

الكائــن

انتحر في قبو مظلم، ذلك الكائن الغريب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وهاهي الشرطة أخيرا تقبض عليه ميتا!!.. لقد فــاتــهــم مــعــرفــة ســره الــدفين، هــذا الــذي كــان يــدمــر الدبابات والطائرات ويقطع أقدام الجنود والحكام لمنعهم من السير والدبيب!!

تقدم رئيسهم نحو مساحة معتَّمة تتوسطها الجثة فتولى مـذعـورا مـن ركـام الخنـافس الـتـي تملأ الـقـبـو، وتـدب عـلـى الأرض والجثمان!..

التمح رسالة مطروحة، مكتوبة بدم جاف.. تناولها وقرأ هذه الكلمات: "إذا أردتم، يا معشر البشر، أن تعرفوا سري ومن أكون فاستنسخوني..!"

قام بروفيسور في الاستنساخ بنسخ خلية أخذوها من الـكـائـن مـتـوقـعـا أن يـعـرفـوا سـره.. لـكـن الخلية تحولت إلى خنفساء فلم يفهم شيئا إذ كانت الخنفساء تصدر أصواتا غريبة تشبه أنين المجروحين في الحرب!..

قرر أخذ خلية أخرى فلم يجدوا في المجّمِد سوى خنفساء ميتة تشبهها!

فكتب المستنسخ تقريرا بأن الكائن المنتحر ليس في الأصل إلا حشرة أرادت الدفاع عن حقوق الحشرات في العالم فتحولت إلى إنسان خطير يقطع أقدام العابثين في الأرض فسادا.. ثم رُفع التقرير إلى هيئة (الأمم) للنظر في شؤون الحشرات.. بينما أخذت الخنفساء تتضاعف كل صباح على وجه الكرة الأرضية!!.

دلاء من المريخ!

كان مغرَقا في الأحلام، بينما أذناه كانتا تتلقيان صوت نقاط الماء القادم من الصنبور الذي نسي إحكامه منشغلا ككل ليلة بخطة لغزو المريخ!

في الحلم ساحت قدماه على سطح الأحمر، وهو يجوس فيه، بدت له الأرض كالحدقة الزرقاء في عين حبيبته!.. تذكرها فأعلن الجسم عطشا غريبا.. وسمع وقع أقدام تتسارع، رنا نحوها فألفى رجالا يمتطون دِلاء؛ توجه إليهم فأخذوه معهم إلى الأرض!..

في الصباح أغلق الصنبور جيدا، بينما التمحت عيناه فاتورة الماء تحت الباب.. فتح المذياع وأطلق أذنيه لخبر مفاده أن عالما مجنونا يفكر في استنساخ قطرات من الماء!!.

البـاقة الأخيرة

مـا في الجـُـبّـة

- نداء المعزوفة الخامسة
- الاتجاه الآخـــــــر
- امرأة تحت الثلــــج!
- ما في الجُبّـــــــة..

نداء المعزوفة الخامسة

انـزاحت وطـأة الـليـل الخـريـفـي نـحـو الانـبـلاج فأضـاءت غرفة الشاب..

في ساعة من الصباح التقى الشيخ، وفي ارتعاشة من يديه قدم له أوراقا تليدة:

– خذها بقوة يا ولدي!

– ما هذا يا سيدي؟!

– بالإمكان أن تعرف..

– شكرا!

تركه وانطلق الشيخ ذاهبا في تلاش.. تابع خطواته نحو محل الأشرطة لشراء المعزوفة الخامسة لـ"موزار"؛ إنه مولع جدا بهذا الفنان، وبهذه الموسيقى الجرمانية/العالمية!..

ولما خرج من المحل التفت إلى الشارع وتفاجأ بخلوه من الناس، بينما نبرات الخامسة لا تزال في أذنيه!.. دب في فؤاده خوف حين سمع نداء من المعزوفة من مكان بعيد:

– طفل حالم، عمره عشرون عاما، يسمع الموسيقى، يشتهي الشمس والنساء، يحب الألوان الأصلية.. من وجده يأتي به إلى المكان!!

انتبه لنفسه فلم يتكرر ذلك النداء، لعله وهم أو خطاب يطفو من الداخل!.. ثم واصل سيره مهرولا.

* * *

... في البيت أعدت له الأم قهوة ثقيلة تناولها مع سيجارة من صنف رديء.. لم ينسَ سماع خامسة "موزار" وهو يتلذذ بالجو الخريفي ذي الزخات الكثيرة من غيوم رمادية وأخرى بنية..

أخذ يفكر في ذلك النداء الذي أعقب خروجه من محل الديسكو، ولم ينسَ لقاءه مع الشيخ،، في لحظة شرود سمع صريف انفتاح الباب، انتبه.. لم تكن إلا قطته الرمادية تحتمي من المطر.. عند الإغلاق لمح صورة الشيخ يحمل مرآة كبيرة يشق بها طريقه نحو الأفق!.. لم يفهم شيئا من هذا فأغلق الباب حثيثا!

في رواق البيت كانت مرآة تشبهها معلقة على الحائط،، استقطبته فنظر نحوها فلمح صورة شاب في العشرين؛ فتذكـــر النداء.. في عجل، حمل معه المطرية وفتح الباب في هدوء تام، غير آبهٍ بالزخات!!

لقد خرج وتبعته القطة،، بينما نسي إيقاف المسجل الذي يصدح الآن بالمعزوفة الخامسة!!.

الاتجاه الآخر

قال الشيخ:

أُنظر يا كليبي، أتذكر شجرة المشمش التي عرّاها الخريف؟

ألم تمسسك نارها بالدفء؟ ألم أقطعها لزوجتي المريضة ذات مساء غارب؟!

إيه! ماتت عجوزي بعدها بأيام في ليلة صقيع، كنت أدرك أنها لن تعيش لأن المرض قد أذواها كالنار للشموع!..

أما أنت، فقد أتيت بك مذ كنت جروًا قبل سنين، سعدت بك زوجتي العاقر.. أما أمك -أرجو ألا تفهمني- فقد قتلها شرطي عربيد، أجل! إني أذكر ذلك اليوم جيدا..

كانت تمشي خلفي ليلا، أنت لا تذكر السيارة الملعونة براكبها العربيد. توقف فجأة وسألني منبها:

- يا أنت، ألم أحذرك من تربية الكلاب؟

لم أعره اهتماما فمشيت.. قال لي:

- إن معي أمرا بقتل الكلاب، ألا تفهم؟

- المسعورة فقط يا سيدي، انظر كلبتي تمشي بهدوء!!
كان المتعربد لا يفرق بين أحوال الكلاب فأمر صاحبه بقتلها وأطاعه الملعون الآخر.. أما أنا فتوجه إلي:

- هيه! بإمكانك أن تعيش وتواصل الحياة!

يلتفت الشيخ إلى الوراء متنهدا:

- إيه! قد عشتُ ثمانين حولا، وها تلك طفولتي ترحل بعيدا عني مثلما يبتعد عني ذلك البيت!

تأتي سيارة أخرى من الاتجاه الآخر، تفرمل فيشير إلى كلبه بالفرار.. ليس إلا بضع خطوات ويقع الكلب بين فكي كماشة فيرتد قتيلا في لحظة!

قال السائق للشيخ:

- آسفون! لقد فرملنا لنخبرك بأننا وضعنا كماميش للذئاب والخنازير التي تهاجم المدينة ليلا!!

فجثم الشيخ وكله نظرات منكسرة يرثي ابنه الأخير!!

امرأةٌ تحت الثلج!

كانت ليلة العشرين من ديسمبر آخر زفرة للخريف،، غروبها قبل ساعات لم يكن جميلا، بل مضى يومها مثقلا بالسحب،، كانت سماء مسائها بيضاء تنبئ بثلج يهطل قبل الصباح!

* * *

تهيأ كعادته لأن يزور تلك القبور الراقدة في عراء المدينة صبيحة كل جمعه، تلك المستورة بجدار مهترئ تنبجس منه عين جارية للسبيل..

توضأ وتنشط ثم دخل المقبرة في ذلك الصباح الباكر،، كانت الساعة تفرق بين الخيط الأسود والخيط الأبيض، أو هكذا تخيل وقت ذهابه آنذاك!

لم يجد أحدا من الزائرين مثل ما كان يلتقي بهم. اندهش للحظات ولم يأبه لذلك بل كان اندهاشه لأمر آخر:

اقترب من اللحد الذي كان يترحم على صاحبته كل أسبوع فذهل لما رأى!

إنه لم يجد سوى أخدود القبر، كل شيء ينبئ بها قد زال!.. الشاهد هو الآخر قد اختفى وألفى بدلا منه صفيحة بيضاء تستعد لكتابة أخرى! نَظر إلى الأخدود فرنا إلى أوراق تليده، فكر في أن يتناولها فخشي من الأمر!! لكنه تشجع في الأخير وأخذها!

كانت رسائل موقعة بخط امرأة مرسلة من السيدة(س) فذهل لذلك!

ولما حاول أن يدسها في جيبه انشق الأخدود متّسعا لجسده فأخذ يصرخ حتى أيقظه من النوم!!

نظر إلى الساعة فكان الضحى من يوم الحادي والعشرين، والتمح النافذة فعلم أن المدينة قد لبست معطفها الأبيض..

ارتدى ملابسه على عجل وخرج إلى عراء المدينة رغم الثلج.. وعلى قبرها طفق الشيخ يبكي كالطفل الرضيع، وهو يُزيح بأصابعه الثلج من على شاهدها المكتوب عليه:

"هذا قبر المرحومة (س) المتوفاة في سنة كذا، من شهر كذا، في يوم كذا.."

"إنا لله وإنا إليه راجعون".

ما في الجبة..

فتحوا الوصية وقرأوا هذه الكلمات:

" إذا أردتم مرضاتي فغطوا نعشي بالجبة "..

وفعلوا ما أوصى به الشيخ واتجهوا بالنعش نحو المقبرة..

بعد الصلاة دفنوه،، واستأثر واحد من مريديه بالجبة فحملها معه!

تُرى ماذا يفعل بالجبة التي ما برحت كتفي الشيخ طيلة أربعين عاما؟!

لقد كان هذا المريد يقبّل كتفيه على الجبة نصف عمره وهو أحق بها من تلامذته ومريديه الآخرين.. فأخذها وانصرف دون أن يشعروا! في الهزيع الأخير قرر أن يلبسها قائما بقية الليل؛ لكن شعر، وهو يرتديها، بوجود تميمة بداخلها.. هكذا يبدو له!

كانت مخيطة فاضطر إلى تمزيقها فلم يجد إلا قرطاسا أصفر مكتوبا عليه:

- إذا أردت النجاة فزر قبري الآن!!

تجشّم مخاوف النفس ولبّى نداء الشيخ.. وفي المقبرة لم يتقدم خطوة واحدة!

لقد رأى شيخه الورع مأدبة شهية لواحد من كلابه!!.

- حاسي بحبح. ربيع 2003 م

الفهـــــرس

سحب الطباعة الشعبية للجيش

الجزائر – 2007

ISBN 978-9947-24-220-9
9 789947 242209